اتجاهات علم النفس في فرنسا في الوقت الحاضر *

بول فريس

مدير مساعد في معمل علم النفس في السربون

ترجمة عبد المنعم المليجي

أخذت كل بلد عزلتها الحرب تعقد تدريجاً أواصرها من جديد بالعالم أجمع ، وتنقب عما قامت به الشعوب الأخرى أثناء العاصفة . فالمجال آخذ فى الاتساع وتحظى المجلات والجرائد بمادة وافرة . والتبادل الأدبي والفني ينعش شيئاً فشيئاً تلك الثقافة العالمية التى تميز العصر الحاضر . ولهذا التطلع أهمية كبرى فى نظر رجال العلم إذ قد أصبح العلم عالمياً منذ أمد بعيد وكل باحث يحس أنه متماسك بغيره من الباحثين ، لا فى مادته المدروسة فحسب ، بل فى كل الميادين الأخرى .

يتعين علينا إذن أن نعنى بالوقوف على ما قطعته كل بلد من مراحل التقدم فى تلك السنوات القاسية . فمن البين لدى الحلفاء أن جميع القوى العلمية وضعت فى خدمة الحرب ، وكذلك علم النفس . وكذلك انطبعت بالحرب الحياة العلمية فى فرنسا ، ولكن على نحو آخر . فكان من العسير إنجاز التعبئة العلمية ، إذ اضطر الاحتلال والغزو الألمانيان كل فرد إلى الانزواء . ومن استطاع اللحاق بمعمله كان يعتبر أسعد الناس حظاً ، بيد أنه فى المعمل ذاته كان يتعذر القيام بأى عمل . أخذ كثير من المساعدين أسرى ، واضطر جميع اليهود والمشتبه فيهم إلى أن يعيشوا فى الخفاء. وكذلك الطلبة اختفوا حيث نفى الألمان الشبان . هذا وقد أخذت الأجهزة تنعدم تدريجاً ، وامتنع التيار الكهربائى ولم تعد المساكن تدفأ . وما كنا نتلقى أية مجلة أجنبية ، حتى بحوثنا الخاصة عجزنا عن نشرها .

من البين فى ظروف هذه شأنها ، ألا يستطيع البحث الفرنسى أن يقدم للعلم كثيراً من المعونة ، إلا إذا استثنينا مواضع خاصة .

على أنه لا ينبغى أن تجعلنا صورة متاعبنا هذه نظن أن علماءنا لم يواصلوا بحثهم ، ولكنها توضح فقط طبيعة بحثهم هذا ، خاصة فى علم النفس . استغل

* ترجمة المقال الفرنسى الذى نشر فى عدد أكتوبر ١٩٤٦ .

علماء النفس الفرنسيين فترة العزلة والسكون هذه فى إعداد بحوث نقدية ، وتأليفات[١] متسعة هى ألزم ما تكون لعلمنا الناشىء . وقد أدى ثراء علم النفس وتشعبه ، لا سيما تحت ضغط الأمريكيين ، إلى قدر كبير من الدراسات التجزيئية التى ينبغى أن تراجع وتنظم من وقت إلى آخر ، لا بقصد التأليف بينها فحسب ، ولكن لنقدها أيضاً .

وقد جذب انتباه علماء النفس الفرنسيين على وجه الخصوص ، ذلك الإنتاج الذى تتميز به عبقرية بلادنا ، تلك العبقرية التى تجمع بين الإبداع (كان بينيه فى اختبارات الذكاء ، وجانيه ، فى علم النفس المرضى ، مبدعين لا مثيل لهما) والنزعة الفلسفية ، والتى تكلف بما هو عام وبالتطلع إلى الإمساك بالخط الموجه للتقدم . وقد افتتح ريبو ، فى نهاية القرن الماضى هذه الطريق فى علم النفس بكتبه عن علم النفس الانجليزى والألمانى . ويحتل برجسون كذلك مكاناً ضمن هذه السلالة رغم أنه أراد أن يخلص من النتائج العلمية بأكثر مما ينبغى من الاستنتاجات الميتافيزيقية .

ومما يجدى أن نلفت النظر إلى أن ديما Dumas ، المتوفى حديثاً أشاد ، بمعونة عدد كبير من المساعدين ، ذلك المؤلف الضافى « موسوعة علم النفس الجديدة »[٢] الذى لا يضارعه مؤلف آخر فى أى بلد من بلاد العالم . ولم يتم هذا العمل ، إلا أن مساعديه سوف يقومون باتمامه ، وسوف تظهر فى القريب المجلدات الأخيرة منه . وكذلك مجلد « الحياة العقلية » من دائرة المعارف الفرنسية ، التى يديرها فالون ، حقق قبل الحرب مباشرة تأليفاً أصيلا بين المعارف السيكولوجية .

وفى أثناء الحرب نشر تيلكان[٣] كتاباً عن المذهب السلوكى استخلص فيه النزعات المتعددة الأوجه لهذه المدرسة . ولن يتسنى لنا لسوء الحظ الاطلاع على مؤلفه النقدى الذى كاد يتمه لولا أن عاجله الموت فى سن باكرة غداة التحرير .

ويمثل بول جيوم على وجه الخصوص هذه النزعة العلمية التى يمتاز بها علم النفس الفرنسى ، تلك النزعة التى أشرنا إليها . والحق أنه ليس غريباً على البحث الخالص . ونحن ندين له بمؤلفات قيمة عن الطفل[٤] وعن نفسية القردة ، ولكن عمله الرئيسى هو جمعه بين البحوث التجريبية فى مجموعات ، تلك البحوث التى

---

(١) Synthèse

(٢) Nouveau Traité de Psychologie

(٣) Tilquin, Le Bchaviorisme-Vrin 1942

(٤) L'Imitation chez L'Enfant--Alcan 1925

تتخذ بتقاربها دلالة جديدة . ومؤلفه عن سيكولوجيا الشكل[١] نموذج لهذا النوع ، حتى ليمكننا أن نقول إن جيوم قد كتب الكتاب الذى لم يستطع أن يكتب لنا مثله أى زعيم من زعماء هذه المدرسة . ويتصل بنفس النوع مؤلفاه عن « تكوين العادات[٢] وعن « علم النفس الحيوانى »[٣].

ولكن جيوم قد يكون نشر مؤلفه الأساسى عام ١٩٤٣ مع مقدمته « مقدمه إلى علم النفس »[٤] ، ذلك المؤلف الذى سوف يعتبر فى نظرى حدثاً هاماً فى تاريخ علم النفس العلمى . وقد ظهر هذا الكتاب لسوء الحظ وسط الحرب ، ولم يصادف فى فرنسا نفسها غير انتشار ضئيل فما كان بوسع المجلات والجرائد العلمية أن تعنى به . والراجح أنه لقى شهرة أوسع من ذلك بكثير خارج البلاد .

ويتصل كتاب المقدمة إلى علم النفس بفلسفة العلوم . ومراده أن يبرهن أن علوم الطبيعة وعلم الإنسان تنبنى بنفس المواد : أعنى الظواهر كما تسلمها لنا الحواس . وهى تسلك نفس المسالك من الغموض إلى الوضوح . ولا تصبح المعرفة التجريبية علمية إلا بتحويل الظاهرة من ظاهرة متعلقة بذاتية معرفتنا الحدسية إلى ظاهرة موضوعية يحددها ما بينها وبين الظواهر الأخرى من علاقات علية . وفى علوم الطبيعة لا نتجاوز الظاهرة إلا فى اللحظة التى نفطن فيها إلى وجود هوة بين وسيلتين من وسائل معرفة موضوع واحد . ونحن فى نفس الوقت ، نتحقق أن الموضوع مختلف عند مظاهره وأننا نضع فيه كثيراً من أنفسنا .

وزيادة على ذلك فان الظواهر الفيزيقية معروفة ونحن لا ندرك إلا ما هو نسبى ، لطريقتنا الخاصة فى الإحساس ، والكلام ، والتفكير . ولا بد أن يكون التقدم العلمى فى علم النفس مسبوقاً بتقدم كاف لعلوم الطبيعة . « فأنا أفكر » تتضمن أن موضوع الفكر نفسه منفصل حقاً عن الفكر ، غير حال فيه . ولم يكن من قبيل الاتفاق أن خصص علم النفس العلمى فى بدء نشأته مكاناً متسعاً لدراسة الإدراك الحسى إذ أننا بذلك نعرف ما هو خاص بالذات .

وبالمثل تتيح لنا دراسة العلية السيكولوجية إدراك الهوة الفاصلة بين الدوافع الشعورية للفعل وبين الفعل ذاته .

---

(١) (Flammarion 1937) Le Psychologie de la Forme

(٢) La Psychologie Animale-Colin 41 (٣) La Formation des Habitudes-Alcan 36

(٤) Introduction à la Psychologie-Vrin 43

وهكذا بابتدائنا بهذا النوع من المعطيات المختارة ، وبفضل التقدم الفيزيقى والبيولوجى نسير رويداً رويداً من سيكولوجيا الظواهر إلى السيكولوجيا العلية العلمية . ويعادل هذا التقدم خلق لغة جديدة . وكما أن الطريق الذى قطعته الفيزيقا ابتدأ بوصف الظواهر وصفاً فيه تشبيه بالإنسان وانتهى بتحليل هذه الظواهر إلى صيغ ورموز ؛ فقد نشأت اللغة العلمية فى علم النفس رويداً رويداً تحت أعيننا ، وافتتح السلوكيون هذه الطريق ولو أن ذلك كان على نحو عنيف . وسيقدم تحليل العوامل العقلية إمكانيات جديدة لخلق هذه اللغة العلمية الضرورية .

وبهذه الكيفية يجتاز علم النفس عهده الفلسفى ، حيث الجهد كله مبذول من أجل تنظيم معطيات الفهم العام(sens commun). وكان الفلاسفة يعتقدون أنهم يقتربون من الحقيقة إذا هم واصلوا دون انقطاع العبث بالتعريفات ، تلك التى لا يمكن أن تكون غير ترديد لفظى إن لم تكن متصلة بالتجربة اتصالا كافياً . فسيكولوجيا الملكات مثلا هى بالنسبة للسيكولوجيا العلمية ، كفيزيقا أرسطو بالنسبة للفيزيقا المعاصرة .

أستاذ فسيولوجيا الإحساسات بفرنسا ، هو هنرى بييرون ، الذى يتزعم علم النفس الفرنسى منذ خمسة وعشرين عاماً . وقد تكاثرت حول بييرون ، البحوث فى معمله رغماً عن الحرب وعما سردناه من صعوبات ، وينطوى المجلد الأول من السنة السيكولوجية [١] ، الذى ظهر منذ تحرير فرنسا ، على نتائج شائقة . ولا تزال رهن البحث بحوث نذكر منها ، بحوث شوشول Chocholle عن السمع ، وجامبولسكى Jampolsky وجاليفريه Galifret عن الإبصار ، وبحوث بييرون نفسه عن قانون ابنى Loi d'Abney . فقد وصل إلى صياغة نظرية جديدة فى الإبصار الصبغى[٢] التى تعنى بكل الظواهر المعروفة الآن والتى تؤيد النظرية الصبغية الثلاثية ، وهى تسلم بوجود رباعية مستقبلة للتنبيه الحسى موحدة ، أى مجموعة من مخروطات أربعة ، ثلاثة منها تحتوى على مادة ضوئية حساسة مختلفة تقابل الألوان الرئيسية الثلاثة ، والرابع مزيج من المواد الثلاث بنسب متفاوتة .

وعلاوة على ذلك نشر بييرون ، بعد التحرير كتاباً طال انتظارنا له من قبل ،

---

(١) L'Année Psychologique (40-47) P.U.F

(٢) Le mécanisme de la vision des couleurs. Sciences, 43, P, 267-295

وهو بحث أصفه طواعية بأنه مجموعة ، بمعنى القرون الوسطى . هذا الكتاب هو « الإحساس مرشد الحياة » (١) . يعرض بيرون فى هذا الكتاب تنظيما وتصفية قيمة لكل المشاكل التى تقدمها دراسة الحواس ، متجنباً الاستنتاجات النظرية العاجلة ، وذلك بمقتضى كل بحوثه وبحوث تلامذته ، وبمقتضى الحجج الكثيرة التى كدسها . يبدأ الكتاب بالتأثير الحسى ، ويدرس تمايز مختلف الأجهزة المستقبلة ، ويبحث بعد ذلك عمليات الاستثارة المختلفة (الميكانيكية ، والحرارية ، والضوئية ، والكيمائية ، والألمية). وعند ما يصل إلى الإحساسات نفسها ، يدرس على نحو مطول أسسها من حيث الكيف والكم ، مضفياً على كل هذه المشاكل توضيحات ستتيح الفرصة دون شك لعدد من البحوث الجديدة .

ويسجل اسم الدكتور دلاى (Dellay) فى المجال السيكوفسيولوجى ، يسجل فى اتجاه خصب ، ترجع أصالته إلى توحيده معنى التجريب . وبذلك يثبت أنه تلميذ بيرون ولابيك فى تطبيق المنهج الإكلينيكى فى مجال الأمراض العقلية ، ذلك المنهج الذى يدين به إلى بيير جانيه .

ويكشف بحثه « انحلال الذاكرة » (٢) عن هذه الاتجاهات كما أن بحوثه عن الدماغ المتوسط ستسفر عن ثراء عظيم لسيكولوجيا الحياة الوجدانية (٣) .

وقد كانت بحوث فالون فى السنين الأخيرة عظيمة الشأن ورغماً عن إيقاف حكومة فيشى له ، ورغم أنه كان عضواً عاملا فى حركة المقاومة ، إلا أنه استطاع أن يعمل وينشر مولفات هامة أكسبت منشوراته السابقة سعة جديدة .

وفى « التطور السيكولوجى للطفل » (٤) يصفى فالون وينظم على نحو من الأنحاء بحوثه السابقة عن الحياة الوجدانية والسلوك الحركى وتطور الخلق عند الطفل . ويقتحم بكتابه « الفعل والفكر » (٥) مجالا آخر لنمو الإنسان ، يبدأ فالون فى هذا الكتاب بنظرته الأساسية ، وهى أن موضوع علم النفس ليس الإنسان ندرسه باعتباره موجوداً مستقلا ، ولكنه الإنسان فى علاقته بالواقع الذى يعتبر المجتمع ناحية من أهم نواحيه . وهكذا لم يعد الأساس هو الصورة الناجمة عن الإحساس أو الاستجابات

(١) Nouvelle Revue Française 1945

(٢) P. U. F. 1942. Les Dissolutions de la Mémoire.

(٣) La Psycho-physiologie. Coll. " Que sais—je ? »

(٤) L'Evolution Psychologique de l'Enfant Colin 41

(٥) L'Acte et la Pensée. Flammarion 42

الحركية للذات ، ولكن الأساس هو نشاط الإنسان الذى يكشف عن ذكاء عملى ، أى عن فهم للمواقف المحسوسة . هذه المواقف يحلها الإنسان فضلا عن الحيوان بفضل المرونة الديناميكية التى تتصف بها العوامل الذاتية والموضوعية التى يتكون من مجموعها موقف ما . ويحوز الإنسان زيادة على ذلك ذكاء استدلالياً ، بيد أن ذلك الذكاء لا ينشأ نتيجة نمو بسيط للذكاء العملى . فلا أسبقية للفعل ولا للفكر . إنما ينمو الذكاء الاستدلالى على نحو جدلى تقريباً ، وبفضل وظيفتنا الرمزية وبفضل تأثير المجتمع ، ابتداء من فعل المحاكاة الذى يبدو فيه بوضوح التمايز بين الفعل والواقع . والمحاكاة ذاتها « تصدر عن نقيضها ، أعنى عن التماثل الكلى بين الذات والغير » . والفكرة فى هذه العملية لا تظهر على أنها تصور مكتف بذاته ، ولكن كوسيلة خلق وتحقيق .

إن التمييزات التى حاول الفلاسفة أن يفرقوا بها بين الفكر والأشياء ، ويفرقوا بها بين مختلف النظريات التى تعرف الفكر بالإضافة إلى الحقيقة أو بالإضافة إلى الواقع ، هذه التمييزات ساكنة (statiques) كما أنها تعزل وجهين لوظيفة واحدة لا سبيل إلى فهمها إلا فى كنف تكوّن الفكر .

قام فالون ، على نحو ما ، بتطبيق وجهات النظر هذه فى مجلدين نشرهما حديثاً عن « أصول الفكر لدى الطفل » [1] . يعنى هذان المجلدان فى آن واحد بما قام به من بحوث وبالنتائج التى يستخلصها منها ، مثلهما مثل مؤلفات « بياجيه » . بيد أن المنهج يختلف . فلسنا هنا بصدد ملاحظات ، ولكن بصدد أسئلة هى بحيث يكشف الحوار عن نواحى النقص فى تفكير الطفل والأساليب التى يتميز بها هذا التفكير . وفى هذا الضوء يبدو أن تفكير الطفل يبتدئ فى نموه بنزعة إجمالية عامة [2] ، وبتفكير جزئى صورته الأولية هى المزدوج (couple) (ميت — حى ، نهار — ليل ، الخ....) حيث يوجد فى آن واحد اندماج وتمايز : يزدوج المتماثل ، ويتوحد المتمايز . » وبتسلسل حالات الاندماج والتمايز المتتابعة ينشأ التمييز ، وهو وظيفة العقل الرئيسية . ويتطور الموضوع ، الذى كان فى البدء مندمجاً فى الفعل الذى يخدمه الموضوع ، من اللفظ إلى التعريف ، وتتضح التعريفات ذاتها شيئاً فشيئاً وبذلك تتيح لنا أن نشيد نظاماً من العلاقات ، يبدأ بتقرير بسيط للوجود فى المكان والزمان ، وينتهى بتفسير على .

---

(١) P.U.F. 45

(٢) syncrétisme général

إن تفكيراً على هذا النحو من الثراء والاستناد إلى ذلك العدد الغفير من الملاحظات لا بد أن يساء إليه بمثل هذا العرض السريع ، بيد أنه مما لا شك فيه أن هـذه التفسيرات تفتح آفاقاً جديدة لتكون الفكر ، وهو الموضوع الذى يجب على علماء النفس والفلاسفة أن يعنوا به .

ومن أحسن ما يمثل هذه النزعة التى أشرت إليها فى مستهل هذه المقالة كتاب ستوتزل Stoetzel « نظرية الآراء » (١) (مكملا بكتابه « دراسة تجريبية للآراء ») : وهو عبارة عن محاولة لوضع المشكلة أحسن وضع . وكان ستوتزل الذى درس فى أمريكا كل المؤلفات التى كتبت عن الرأى ، والذى أسس فى فرنسا « معهد الرأى » ، يقصد قصداً بيناً أن يضع « نظرية » عن الرأى . كل نظرية تعنى بالظواهر وتسمح بمتابعة دراستها ، حيث أنه لا وجود فى العلم ، كما أشار جيوم ، لظاهرة غفل ، فالظاهرة هى دائماً نتيجة بناء وتركيب . »

حاول ستوتزل إذن تعريف الرأى باستناده إلى نفس البحوث التى أخرجها ، حيث أن الظاهرة العلمية تتعين دائماً بواسطة المناهج التى تسمح بدراستها . وهكذا يصل ، بعد تعيينه مشاكل تحديد الآراء ، وتقديرها والتصميم عليها ، إلى التعريف التالى : « آراء شخص ما ... هى مظاهر موقف يمكن تقديره وفق سلم موضوعى ، مظاهر هى عبارة عن ارتضاء صيغ ما .

وقد درس توزيع هذه الآراء دراسة فنية وتسفر هذه الدراسة عن توزيع مزدوج يوضحه نوعان من الرأى مختلفان . أحدهما يعبر عن الرأى الخصوصى ، رأى « الأنا » ، والآخر يعبر عن الرأى المتأثر بالمجتمع ، رأى الـ « نحن » . وتؤدى دراسة الرأى بعد ذلك إلى دراسة علاقات الفرد والمجتمع ، علاقات عالم النفس بعالم الاجتماع ، وتتيح لنا الوصول إلى النتيجة التالية التى لا يسعنا إلا أن نذكرها : الرأى هو إحدى الوظائف التى ينتظم بها شتات الأفكار فيصبح أشخاصاً ومجتمعات » (ص . ٣٦٧) .

وهكذا يفتح هذا البحث آفاقاً فلسفية وسياسية وتربوية ، ذلك أن الرأى يحتل مركز العلاقات بين الحياة الخاصة والحياة الاجتماعية . وسوف يكمن التقدم فى وحدة أكثر اتساعاً من وحدة الفرد والمجتمع ، وحدة سوف تزول فيها التفرقة بين حالتين من حالات الرأى .

هذا العمل ، عمل النقد والتأمل ، يتابعه بوناردل Bonnardel لحسابه الخاص

(١) La Théorie des Opinions, P.U.F. 1943

فى ميدان علم النفس التطبيقى . و« لبوناردل » دراية بعلم النفس الفنى الصناعى [١] نتيجة دراسة متواصلة ، رغماً عن الأعمال التى يديرها فى أحد مصانعنا الكبرى التى تقوم بالعمل الميكانيكى . ومؤلفه « تكيف الإنسان لمهنته » [٢] إنما هو عرض فنى للمناهج التى نعدها فى الوقت الحاضر كى نستأصل العامل الذاتى فى توجيه العمال واختيارهم . ولا يقصد بهذا العرض المتخصصون فقط ، بل كل من تهمهم فنون علم النفس ، وذلك بأن يوقفهم على مدى كل هذه المناهج وحدودها . ولا يفوته أن يلقى ضوءاً على أكثر المشاكل اتصالا بالواقع الملموس فيشير إلى المسائل النظرية التى تقوم عليها هذه المشاكل . وقد لاقى هذا المؤلف نجاحاً فائقاً ، وسيعاد طبعه قريباً ، وهو عبارة عن تصفية وتنظيم لمسألة متطورة ، فى مجال يشاب فيه التجريب بادعاءات علمية خاطئة .

ولهذه المؤلفات ، من « فالون » إلى « بوناردل » ، علاوة على ذلك ، أهمية خاصة ، إذا علمنا أن فرنسا فى مستهل التعمير توجه نداء لعلماء النفس بتصميمها على استغلال مواردها الإنسانية إلى أقصى حد . ففى الجيش الجديد مثلا ، سيعاد من الآن فصاعداً توزيع الجنود المسرحين وفق اختبارات نفسية فنية [٣] سوف يعاد فحصها خاصة لاختبار الضباط . وفى الصناعة ، تقوم المؤسسات الكبرى بتنمية أعمال نفسية فنية (السكة الحديد ، الطيران ، المواصلات العمومية ، المنشآت الميكانيكية) .

وسيحتل علم النفس مكانه فى المدرسة إلى جانب المعلمين والمربين ، يوم يتحقق إصلاح التعليم ، ذلك الإصلاح الذى تعد له العدة الآن والذى لا يعطله غير الفقر الحالى فى البلاد .

ولا نبالغ إن قلنا إن علم النفس الفرنسى يحظى بمكان من العالم بالغ الأهمية ، لا بكثرة عدد الباحثين ولكن بما لهم من خاصية . ورغم تميزه عن الفلسفة إلا أنه فى قبالة النمو الأمريكانى ، كلف بالنقد والتأليف synthèse ، وهذا الكلف هو الذى يقدم للبحوث السيكولوجية أسساً جديدة لنمو جديد .

---

(١) La Psychotechnique

(٢) P.U,F. 1945

(٣) Examens Psychotechniques